

# طَبَقَاتُ الشَّافِعِيِّ الْكَبِيرِ

لِنَجَّاحِ الدِّينِ أَبِي نَصْرِ عَمِّدِ الْوَهَّابِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الْكَافِي السُّبُّبِيِّ

٧٢٧ — ٨٧١ هـ

تحقيق

محمود محمد الطناحي      عبد الفتاح محمد الحلو

١

[ الطبعة الأولى ]

[ جميع الحقوق محفوظة ]

١٩٦٤ — ١٣٨٣ هـ

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

(١)

يعتبر القرن الثامن الهجري مرحلة من مراحل النشاط الفكري ، التي ظهرت في الدولة الإسلامية عقب الزحف التتري على بلاد الإسلام في القرنين السادس والسابع ؛ فإن الأحوال العظيمة التي صحبت هذا المد ، وما نجم عنها من إهلاك للبشر ، وتخريب للديار وحرق وإغراق للثورة العلمية على يد هؤلاء الهمج نبه جمهرة العلماء العرب ، ودفعهم دفعا إلى تراث آبائهم وأجدادهم ، فكفوا عليه تحصيلاً وفيهما ، وتمتلوه علماً وفناً ، ثم فرغوا بعد ذلك إلى أقلامهم يسجلونه على نحو جديد ، يدينه من كل قلب ، ويحجبه إلى كل نفس .

وكان ذلك إيذاناً ببداية عصر الموسوعات العلمية والأدبية ، ولعت آنذاك في سماء الفكر شخصيات فريدة، من أمثال الذهبي والنُّورِي والصفدي وابن السبكي ، ثم أتى من بعدهم أمثال ابن حجر والسيوطي .

وعلى الرغم مما اكتنف القرن الثامن من ظلام الحكم المملوكي ومآسيه ، فإن همّة العلماء لم تقترب ، وكأنما كانوا موكولين بتراث العرب وقد تجمع ما تبقى لديهم من أصوله ، كأنما وكلوا بهذا التراث يحفظونه من الضياع ، ويقونه شر الخطوب وكوارث الحروب ، وظلوا حفاظاً على هذه الثروة الفكرية ، يسلمونها من جيل إلى جيل ، حتى أتت إلينا غنية موفورة ، تقدم بعض الغزاء عن ما فقدناه من أصول الفكر العربي ، التي ذهب بها الغزو التتري ، وأتت على كثير منها الحروب الصليبية .

ولقد كانت أسرة زين الدين أبي محمد عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي ، المتوفى سنة ٧٣٥ هـ ، من بين الأسر التي شاركت بنصيب كبير في تلك النهضة العلمية .

فولده شيخ الإسلام تقي الدين أبو الحسن علي المتوفى سنة ٧٥٦ هـ - والد تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب المترجم :- « طار اسمه فلأ الأقطار ، وحلق على الدنيا ولم يكتف بمصر من الأمصار »<sup>(١)</sup> وقد ولى التدريس في المنصورية ، وجامع الحاكم ، وجامع ابن طولون والمهكارية بمصر ، والمسروية بدمشق . وتصدى لتقى الدين أحمد بن تيمية ، ورد عليه في مسألتى : الطلاق ، وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ووقع عليه الاختيار سنة ٧٣٩ هـ ليكون قاضى قضاء الشام ، وولى بدمشق مع القضاء خطابة الجامع الأموى ، ومشیخة دار الحديث الأشرافية ، والتدريس بالشامية البرانية ، وصنف ما يربو على مائة وخمسين مصنفا في العلوم الشرعية والعربية .

وحفيده بهاء الدين أبو حامد أحمد بن علي المتوفى سنة ٧٧٣ هـ - أخو المترجم :- « كانت له اليد الطولى في علوم اللسان العربى والعانى والبيان »<sup>(٢)</sup> ، تولى التدريس بجامع ابن طولون وجامع الظاهر ، والسيفية ، والمهكارية ، وأسند إليه إفتاء دار العدل ، وقضاء العسكر وقضاء الشام ، وخطابة جامع ابن طولون .

وحفيده جمال الدين أبو الطيب الحسين بن علي المتوفى سنة ٧٥٥ هـ - أخو المترجم :- « كان ذهنه ناقبا ولإدراك العانى مراقبا ، وكان يعرف العروض جيدا وينظم الشعر بل الدر ويأتى في معانيه بالزهر الزهر ، عفيف اليد في أحكامه »<sup>(٣)</sup> ، وقد تولى التدريس بالمهكارية وبالشامية البرانية .

أما حفيده تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي ، فقد أوفى على الغاية ، واستطاع بدكائه وجده ودأبه أن يصل إلى أرق المناصب ، وأن يحتل مكان الصدارة في الفتيا والتدريس ، وأن يخرج إلى الناس من مؤلفاته ما يبهر : غزارة علم ، وجمال عرض ، وحسن تنسيق .

(١) ترجمته (الطبعة السابعة) .

(٢) الدرر الكامنة ١ / ٢١١ .

(٣) ترجمته (الطبعة السابعة) .

ولد تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن قاضي القضاة تقي الدين أبي الحسن علي بن زين الدين أبي محمد عبدالكافي بن ضياء الدين أبي الحسن علي بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام السبكي بمصر سنة ٧٢٧هـ . ذكر ذلك أكثر من واحد ممن رجوا له ، ولكن ابن حجر بعد أن ذكر في الدرر الكامنة أن مولده في هذه السنة ، عاد فذكر في طبقات الحفاظ التي جعلها ذيلًا على شرح البديعية لابن ناصر أن مولده كان في سنة ٧٢٨هـ . وقد وافقه ابن ذري بردي في المنهل الصافي والذهبي في المعجم المختص فذكر أن مولده كان في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة .

ولكن الزبيدي في تاج العروس (س ب ك) يذكر أن مولده كان سنة ٧٢٩هـ ، وربما نقل الزبيدي هذا عن السيوطي في كتابه حسن المحاضرة .

وقد فتح تاج الدين عينيه على بيت يوج بالمعرفة ، ورأى وفود العلماء وهي تنسِل إلى مجلس أبيه ، ينهلون من علمه ، ويقيدون فوائده ، فليس غريبًا أن يبدأ عبد الوهاب في التحصيل مبكرًا ، وأن يحفظ القرآن في صغره ، ثم يأخذ عن والده أصول العربية والعقيدة والتشريع ويتلمذ لأساتذة عصره ، فيجزئه في مصر بعد فترة وجيزة ابن الشحنة ، ويونس الدبوسي ، ويسمع على يحيى بن المصري ، وعبد المحسن الصابوني ، وابن سيد الناس ، وصالح بن مختار وعبد القادر بن الملوك ، وغيرهم . وبذكر ابن تغري بردي أيضًا أنه سمع بمصر من القدسي وطبقته .

وحين تولى والده منصب قاضي قضاة الشام رحل معه إلى دمشق ، فقدمها في جادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وسبعمائة ، وفي دمشق سمع من زينب بنت السكال ، وابن أبي اليسر ، وابن تمام ، وقرأ بنفسه على الزرى ، ولازم الذهبي ، وتخرّج بتقى الدين ابن رافع ، وأخذ عن الشيخ أثير الدين أبي حيان ، وأجاز له الحجار ، وخرّج له ابن سعد مشيخة حدّث بها .

ولم يكتف ابن السبكي بتلقيه المعرفة على هؤلاء الأعلام ، وإنما أتجه إلى التحصيل بنفسه

وأقبل على العلم بهمة فتيّة ، ونفس مشوقة ، حتى قال عنه العماد الحنبلي : « طلب بنفسه ودأب » ، وقال عنه ابن حجر العسقلاني : « أمعن في طلب الحديث ، وكتب الأجزاء والطباق ، مع ملازمة الاشتغال بالفقه والأصول والعربية حتى مهر وهو شاب » .

وقد صور تاج الدين هذه الحقبة من حياته في كتابه الطبقات ، وكشف عن اهتمام والده بترييته ، وحرصه على تثقيفه ، على يد كبار العلماء ، ممن يثق في علمهم ، ويطمئن إلى وسائلهم في الدرس والتلقين ، فقال في ترجمة شيخه الزيّ في الطبقة السابعة : « وكنت أنا كثير الملازمة للذهبي ، أمضى إليه في كل يوم مرتين : بكرة ، والعصر . وأما المزي فما كنت أمضى إليه غير مرتين في الأسبوع ، وكان سبب ذلك أن الذهبي كان كثير اللطافة والمحبة فيّ ، بحيث يعرف من عرف حالي معه أنه لم يكن يجب أحدا كحجته فيّ ، وكنت أنا شابا ، فيقع ذلك مني موقعا عظيما ، وأما المزي فكان رجلا عبوسا مهيبا ، وكان الوالد يجب أن ألزم المزي أكثر من ملازمة الذهبي ، لعظمة المزي عنده . وكنت إذا جئت غالبا من عند شيخ يقول : هات ، ما استفدت ، ما قرأت ، ما سمعت ؟ فأحكي له مجلسي معه ، فكنت إذا جئت من عند الذهبي يقول : جئت من عند شيخك . وإذا جئت من عند الشيخ نجم الدين القحقاري يقول : جئت من جامع سكر<sup>(١)</sup> ، لأن الشيخ نجم الدين كان يشغنا فيه وإذا جئت من عند الشيخ شمس الدين بن النقيب يقول : جئت من الشامية ، لأنني كنت أقرأ عليه فيها . وإذا جئت من عند الشيخ أبي العباس الأندلسي يقول : جئت من الجامع لأنني كنت أقرأ عليه فيه . وهكذا ، وأما إذا جئت من عند المزي فيقول : جئت من عند الشيخ . ويفصح بلفظ الشيخ ، ويرفع بها صوته . وأنا جازم بأنه إنما كان يفعل ذلك ليثبت في قلبي عظمته ، ويحثني على ملازمته » .

ويدل على عناية والده به ، وحرصه عليه ، مع نجابة تاج الدين ونباهة شأنه ، ما يحكيه في الطبقات في ترجمة المزي أيضاً ، حين يذكر أنه : « شعر مرة مكان بدار الحديث الأشرفية فترزني فيه ، فعجبت من ذلك ، فإنه كان لا يرى تنزيل أولاده في المدارس . وها أنا لم آل

(١) لعله : جامع تنسكز .

في عمرى فقاهاة في غير دار الحديث ، ولا إعادة إلا عند الشيخ الوالد ، وإنما كان يؤخرنا إلى وقت استحقاق التدريس . على هذا ربانا رحمه الله . فسألته فقال: ليقال إنك كنت فقيها عند المزي . ولما بلغ المزي ذلك أمرهم أن يكتبوا اسمى في الطبقة العليا ، فبلغ ذلك الوالد فازعج وقال : خرجنا من الجد إلى اللعب ، لا والله ، عبد الوهاب شاب ، ولا يستحق الآن هذه الطبقة ، اكتبوا اسمه مع المبتدئين . فقال له شيخنا الذهبي : والله هو فوق هذه الدرجة ، وهو محدث جيد - هذه عبارة الذهبي - فضحك الوالد وقال : يكون مع المتوسطين .

وقد كان لهذا النبوغ المبكر أثره في لفت أنظار معاصريه إليه ، وتوليه المناصب العلمية في سن لم يُسمع أن أحدا وليها فيه ، فقد أجازته شمس الدين ابن النقيب بالإفتاء والتدريس ، ولما مات ابن النقيب كان عمر تاج الدين ثمان عشرة سنة .

وأتته الذهبي إلى ما يتميز به تاج الدين ، فسجل في ترجمته له في المعجم المختص<sup>(١)</sup> قوله : « عبد الوهاب ابن شيخ الإسلام تقي الدين علي بن عبد الكافي القاضي ، تاج الدين أبو نصر السبكي الشافعي ، ولد سنة ٧٢٨هـ . كتب عنى أجزاء نسخها ، وأرجو أن يتميز في العلم ، درّس وأفتى ، وعنى بهذا الشأن » .

وقال عنه بعد ذلك الحافظ شهاب الدين بن حجر<sup>(٢)</sup> : « حصل فنونا من العلم : من الفقه ، والأصول وكان ماهرا فيه ، والحديث والأدب ، وبرع وشارك في العربية ، وكان له يد في النظم والنثر ، جيد البديهة ، ذا بلاغة وطلاقة لسان وجرأة جنان ، وذكاء مفرط ، وذهن وقاد »

وتولى أبو نصر بعد هذا مناصب عديدة ، فقد تولى التدريس في العزيزية ، والعادلية الكبرى ، والغزالية ، والمذراوية ، والشاميتين ، والناصرية ، والأمينية ، ومشيخة دار الحديث الأشرفية ، والتقوية ، والدماغية ، والمسروية ، كما تولى تدريس الشافعي بمصر والشيخونية ، والميعاد بالجامع الطولوني .

(١) قلا عن الكتاني في فهرس الفهارس .

(٢) قلا عن ابن حجر في الدرر الكامنة .

كما تولى تاج الدين خطابة الجامع الأموى بدمشق ، وناب عن أبيه في الحكم ، وولى توقيع الدست سنة ٧٥٤هـ - وكتاب الدست يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل في الموكب ، على ترتيب منازلهم بالقدمة ، ويقرأون القصص على السلطان ، بعد قراءة كاتب السر ، على ترتيب جلوسهم ويوقعون على القصص كما يوقع عليها كاتب السر - يقول تاج الدين : « وقد وليت توقيع الدست بالشام ، بين يدي ملك الأمراء الأمير علاء الدين أمير علي بن علي المراديني نائب الشام » .

وقد تولى أبو نصر قضاء الشام في ربيع الأول سنة ست وخمسين وسبعمائة ، ذكر ذلك ابن العماد الحنبلي ، وذكر أن هذا تم بسؤال والده ، ولكن ابن حجر العسقلاني يذكر في « الدرر الكامنة » أن توليه القضاء كان في ربيع الأول سنة سبع وخمسين .

وقد ظل تاج الدين يشغل هذا المنصب إلى أن وافاه أجله ، وكان ذلك على أربع مراحل ؛ فقد عزل مدة لطيفة - كما يقول ابن العماد - ثم أعيد ، ثم عزل بأخيه بهاء الدين ، وتوجه إلى مصر على وظائف أخيه .

ويصف لنا صلاح الدين الصفدى هذه الفترة ، وشوق دمشق إلى تاج الدين ، في رسالة رد بها على رسالة من تاج الدين وهو بمصر سنة ٧٦٣هـ ، فيقول (١) :

لكن جعلت الشام بعد	دك كالجحيم وكان جنه
ودمشق بعدك قد رددت	ت ثوب حزن فيه دكته
لم يسق من برد البرد	ص ولو أتى أولاد جفنه
وكذاك ثوب بعد بعد	دك ما تنسى بل تسنه
والجامع الدمور كما	د يزغزع الأشواق ركنه
والقبة الشماء ليد	س بجوها للنسر قنه
كانت به الأعطاف وه	سى موائد يملأن صحنه

(١) الطبقات الكبرى ، ترجمة خليل بن أيبك الصفدى ( الطبقة السابعة ) .

والآن أفقر وحشة وأسأل منه السقف دهنه  
والله خيب فيك ما قال الحسود ورد ظنه  
قد كاد حتى كاد يدسى ما تقوله عرّضنه

ثم عاد تاج الدين إلى القضاء على عادته ، وولى الخطابة بعد وفاة ابن جملة ، ثم عزل  
وحصل له فتنة شديدة ، وسجن بالقلعة نحو ثمانين يوما ، ثم عاد إلى القضاء .

ومن يعرف الأحوال السياسية في ذلك العصر ، لا يدهش لثل هذه الأمور ، فقد كان  
تولية قاض وعزله من الأمور السهلة الهينة ، التي لا يرى فيها الحكام الممالك إنما  
ولا حرجا ؛ ولكن عزل تاج الدين في المرة الأخيرة يسترعى الانتباه ، فإن الأمر لم يقف  
عند مجرد عزله ، وإنما أجريت محاكمة لتاج الدين ، حكم فيها ابن قاضي الجبل بحبس  
تاج الدين سنة ، وهرب أخوه بهاء الدين ، فاقتفى عند التاج الملكي ، وهو يومئذ مباشر  
بالشام قبل أن يسلم ، واجتهدوا في طلبه فلم يظفروا به .

ولكن ترى ما سبب هذه المحاكمة ، وذلك الاضطهاد للأسرة كلها ؟ !

يورد ابن حجر العسقلاني تفسيرين لهذه الحادثة :

أولهما قوله : وكان من أقوى الأسباب في عزله المرة الأخيرة ؛ أن السلطان لما رسم  
بأخذ زكوات التجار في جمادى الأولى سنة ٦٩ ، وجد عند الأوصياء جملة مستكثرة ،  
لكنها صرفت بعلم القاضي بوصولات ليس فيها تعيين اسم القابض ، فأريد من الأيتام  
أن يعترف أنها وصلت للقاضي ، فامتنع ، فآل الأمر إلى عزل القاضي .

وثانيهما قوله : قرأت بخط القاضي تقي الدين الزبيرى : لما قُتل يلبغا طلب الأشرف  
أمير على المارديني ، ومنكلى يلبغا أتاك العساكر ، فكان أول شيء تكلم فيه أمير على  
عزل تاج الدين ، وقرر في القضاء عوضا عنه الشيخ سراج الدين البلقيني ، فولى القضاء  
والخطابة وتوجه ، وكشفوا على تاج الدين ، وحكم ابن قاضي الجبل بحبس تاج الدين سنة .

ويبدو لنا أن كل واحد من التفسيرين يوضح جانباً من الحقيقة ، فإن ابن تفرى بردى يذكر فى النجوم الزاهرة - أثناء الحديث على ولاية الأشرف - : أن أمير على حين ولى إمرة الشام كان أول ما طالب به عزل القضاة . ولعلها فرصة سنحت لمن غصت حلوقهم بالمرارة منه من العلماء ، فقد كانوا ينفسون عليه مكانته ، ويحسدونه على ما أوتى من علم ، وما أصاب من نجاح لدى الحكام وجمهور الناس ، فلا عجب أن زاهم ينسجون حوله هذه التهمة ، ويقفون منه هذا الموقف العدائى العنيف ، خاصة وأنه كان يعطى نفسه حقها من التكريم ، فقد ذكر السيوطى أنه قال فى ورقة كتبها إلى نائب الشام : « وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الإطلاق ، لا يقدر أحد يرد على هذه الكلمة » ، ويعقب السيوطى على ذلك بقوله : « وهو مقبول فيما قال عن نفسه » .

ولعل ما نذر تاج الدين نفسه له ، من دراسة لأحوال الأمة الإسلامية فى عصره ، وتقد لطوائف الناس ، وتوضيح لأخطائهم ، ورسم السبيل إلى إصلاحهم فى كتابه العظيم « معيد النعم ومبيد النقم » كان من أقوى الأسباب فى عزله ، واختلاق هذه الأحداث حوله ، فقد استطاع تاج الدين أن يعالج مشكلات الأمة الإسلامية فى هذا الكتاب ، فى اثنتى عشرة ومائة مسألة ، بادئاً بالسلطان والمناصب السلطانية والعسكرية ، متدرجاً إلى كل الوظائف العامة ، حتى يصل إلى الفلاح فى أرضه ، ويقرر فى صراحة ندر أن تجدها فى عصره : « أن الفلاح حر لا يد لآدمى عليه » .

لعل ذلك كله رسم جوانب المأساة ، ولكن تاج الدين ، بشهادة معاصريه وقف موقف العالم المتثبت ، والداعية المؤمن بدعوته ؛ فقد قال عنه معاصره ابن كثير : « جرى عليه من المحن والشدائد ما لم يجز على قاض قبله ، وحصل له من المناصب والرياسة ما لم يحصل لأحد قبله ، وانتهت إليه الرئاسة بالشام ، وأبان فى أيام محنته عن شجاعة وقوة على المناظرة ، حتى أحم خصومه ، ثم لما عاد عفا عنهم ، وصفح عنم عليه » .

ولقد طارت شهرة تاج الدين فى كل الأقطار الإسلامية ، وأصبح عمدة الناس فى

الفتيا ، وكان أهل مصر يرسلون إليه يستفتونه في كثير مما يعرض لهم ، كما يقول المقرئ في « المواعظ والاعتبار » .

يقول ابن حجر في ذكر رجوعه إلى القضاء في المرة الأخيرة ، نقلًا عن القاضي تقي الدين الزبيرى: « ولم يزل من يتعصب للسبكي يلح على أمير على ، حتى أذن في إحضار تاج الدين وأخيه من دمشق ، فقدم بهاء الدين القاهرة ، وأقام تاج الدين في دمشق ، فلما بلغ ذلك البلقيني توجه إلى مصر ، فأقام قليلا ، ثم رجع إلى دمشق ، فنسلط عليه أهل الشام ، وكتبوا فيه محضرا ، وأسموه ما يكره . وسعى بهاء الدين لأخيه حتى ولى الخطابة ، فخطب أول يوم من شوال ، فشق ذلك على البلقيني ، وخرج بأهله وعياله إلى القاهرة ، فأعيد تاج الدين إلى القضاء ، وهى الولاية الأخيرة التى مات فيها» .

وبعد هذه الحياة الحافلة بمجلائل الأعمال توفي تاج الدين أبو نصر بن على شهيدا بالطاعون ، باللهشة ظاهر دمشق ، فى ذى الحجة ، خطب يوم الجمعة ، وطعن ليلة السبت رابعه ، ومات ليلة الثلاثاء سابعه سنة ٧٧١ هـ ، ودفن بتربة السبكية بسفح قاسون ، عن أربع وأربعين سنة .

### (٣)

هذه الحياة الحافلة التى عاشها تاج الدين تدل على ما كان يتمتع به من ثقافة واسعة رحبة ، ردفتمها أفكار شيوخه ، وهذبها حرصه ودأبه ، ثم تولى بسطها أمام الناس ذهنًا وقاد ولسان طلق ، وحجة قوية ، ونشرها بين جمهرة المثقفين ما أخذ نفسه به من التقيد والتأليف وما قدر مؤلفاته من القبول والنجاح .

وأول ما يلفت النظر فى ثقافة تاج الدين أنها ثقافة فقهية ، فقد حظى الفقه فى ذلك الوقت باهتمام العلماء ، لحاجة الناس إليه ، ولتصدر مناصب الفتيا والقضاء ، وقد ضرب تاج الدين فى هذا الفن بسهم وافر ، وألف فيه ، وجمع لوالده فتاويه وكثيرا من المسائل التى تفرّد

فيها برأى ، أوردجج فيها قولاً على قول ؛ وقد بلغ من اهتمامه بالفقه أنه ملأ الطبقات الكبرى بمسائله ، وبسط فيها مناظراته .

كما اهتم تاج الدين بأصول الفقه ، وصنف في ذلك مختصراً ، جمعه من زهاء مائة مصنف مع زيادات قيدها ، وبلاغة في الاختصار .

وعنى بالحديث ، فروى السنة عن حفاظ عصره ، وقد صدق ابن حجر في قوله : « ومن الطبقات تعرف منزلته في الحديث » . واهتم بالجرح والتعديل ، وله في نقد الرجال نظرات نافذة . وهو يضع في ذلك قواعد ، يستدركها على من سبقه . ففي ترجمة أحمد بن صالح المصري ( الطبقة الأولى ) يقول : « الصواب عندنا أن من ثبتت إمامته وعدائته ، وكثر مادحوه ومزكوه ، وندر جارحه ، وكانت هناك قرينة دالة على سبب جرحه : من تعصب مذهبي أو غيره ، فإننا لا نلتفت إلى الجرح فيه ، ونعمل فيه بالمعادلة . وإلا لو فتحنا هذا الباب ، أو أخذنا تقديم الجرح على إطلاقه لما سلم لنا أحد من الأئمة ، إذ ما من إمام إلا وقد طمن فيه طاعنون ، وهلك فيه هالكون » .

وقد ناقش ابن السبكي مشكلات العقيدة ، وخلافيات علم الكلام ، ومسائل المنطق في كثير من المواضع ، في الطبقات الكبرى ، وعقد للحديث عن الإيمان والإسلام والإحسان ، وزيادة الإيمان ونقصانه ، والقدر فصلاً طويلاً في المقدمة ، وأفاض في هذه المسائل ؛ مما يدل على بصره بعلم الكلام ، وطول باعه فيه .

ولتاج الدين ولع بمعرفة الحوادث التاريخية ، وسير الرجال ، وقد دفعه هذا إلى الإحاطة بالتاريخ الإسلامي ، وإلى التنقيب في تاريخ العلماء ، والاستفادة من تجاربهم ، وهو يدرك بذكائه مواطن الوهن في مؤلفات من سبقه ، ويحاول أن يضع لنفسه ، ولمن يأتي بعده قواعد في التاريخ ، ونهجاً في سرد الحوادث .

ورغم محبته لشيخه الذهبي وإعازته له ، فقد أخذ عليه أموراً في تاريخه ، يقول في ترجمة أحمد بن صالح المصري أيضاً : « وأما تاريخ شيخنا الذهبي - غفر الله له - فإنه على حسنة

وجمه مشحون بالتمصب المفرط - لا واخذه الله - ، فقد أكثر الوقعة في أهل الدين ،  
أعنى الفقراء الذين هم صفوة الخلق ، واستطال بلسانه على كثير من أئمة الشافعيين  
والحنفيين ، ومال فأفرط على الأشاعرة ، ومدح فزاد في الجسمة . هذا وهو الحافظ المدّر ،  
والإمام المبجل ، فما ظنك بعوام المؤرخين .

ويعقب ابن السبكي على ذلك بذكر قاعدة في المؤرخين فيقول : « فالرأى عندنا أن  
لا يُقبل مدح ولا ذم من المؤرخين إلا بما اشترطه إمام الأئمة ، وحبر الأمة ، وهو الشيخ الإمام  
الوالد رحمه الله حيث قال ، ونقلته من خطه في مجاميعه : يشترط في المؤرخ الصدق ، وإذا  
نقل يعتمد اللفظ دون المعنى ، وأن لا يكون ذلك الذي نقله أخذ في المذاكرة وكتبه بعد  
ذلك ، وأن يسمى المنقول عنه ، فهذه شروط أربعة فيما ينقله . ويشترط فيه أيضاً لما يترجمه  
من عند نفسه ، ولما عساه يطول في التراجم من النقول ويقصر أن يكون عارفاً بجمال  
صاحب الترجمة : علماً ، وديناً ، وغيرها من الصفات ، وهذا عزيز جداً . وأن يكون حسن  
العبارة عارفاً بمدلولات الألفاظ ، وأن يكون حسن التصور ؛ حتى يتصور حال ترجمته جميع  
حال ذلك الشخص ، ويعبر عنه بعبارة لا تزيد عليه ، ولا تنقص عنه ، وألا يغلبيه الهوى ،  
فيخيل إليه هواه الإطناب في مدح من يحبه ، والتقصير في غيره ، بل إما أن يكون مجرداً  
عن الهوى ، وهو عزيز ، وإما أن يكون عنده من العدل ما يقهر به هواه ، ويسلك طريق  
الإنصاف . فهذه أربعة شروط أخرى . »

ورغم اشتغال ابن السبكي بالفقه والحديث والتاريخ فقد احتفل بعلوم اللسان العربي ،  
وأفصح من صدر كتابه الطبقات لمسائل النحو والصرف والبلاغة والعروض ، واهتم  
بغريب اللغة ، بل إنه استدرك على ابن الأثير حديث ريان بن قيسور ، وقال عنه<sup>(١)</sup> :  
« إن ابن الأثير لم يذكره في نهاية غريب الحديث ، مع شدة تفحصه . »

(١) الطبقات السكبري : ترجمة محمد بن إبراهيم البوشنجي (الطبعة الثانية) .

وقد تعلق أبو نصر بدراسة الأدب منذ صباه ، واهتم بالشعر وصناعته ، وله في ذلك نظرات نافذة في اختيار كلمة دون كلمة ، أو تفضيل شاعر على شاعر ، تجد ذلك مبسوطاً في طول كتابه الطبقات وعرضه ، وقد صحب في حدائثه سنه صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ، وهذه الصحبة استطاع السبكي أن يشهد ملكته ، وأن يتناول القريض كما يتناوله مثله من العلماء ، يقول تاج الدين :

« كنت أحببه منذ كنت دون سن البلوغ ، وكان يكاتبني وأكاتبه ، وبه رغبت في الأدب فربما وقع لى شعر ركيك من نظم الصبيان فكتبته هو عنى إذ ذاك وأنا ذا كر بعض ما بيننا مما كان فى صغرى .

ثم لما كان بعد ذلك كتب إلى مرة ، وقد سافر إلى مصر ولم يودعنى :

يا سيدا سافرت عنه ولم أجد      جلدى يطاوعنى على توديعه  
 إن غبت عنك فإن قلبى حاضر      يصف اشتياق للحمى وربوعه  
 فى أبيات أخر ، فكتبت الجواب :

يا راحلا بجشا القيم على الوفا      ما الطَّرفُ بعدك مؤذنا بهجوعه  
 إن غبت عنه فما تغير منه إلا م      جسمه سقا ولون دموعه  
 والقلب بيت هواك راح كأنه      بيت العروضيين من تقطيعه  
 فى أبيات أخر نسيتها .

ويستطرد ابن السبكي فى ذكر هذه المطارحات فىقول :

« كتب إلى مرة - وقد ولد له ولد - يدعونى إلى حضور عقيته :

عبدك هذا الجديد أضحى      يقول فاسمع له طريقه  
 يا جوهر فى الزمان فردا      ماضر أن تحضر العقيقة  
 فكتبت إليه :

هنتت ذا الجوهر الفدى      بالعرض الكنه والحقيقة  
 لو لم تكن حازما مصيبا      لم تفقد الناس بالعقيقة

وأعارني مرة من تذكرته مجلدا ، وكان يصنف كتابا في الوصف والتشبيه ، وينظر عليه التذكرة ، ويكتب على كل مجلد إذا تجز : تجز التشبيه منه . فلما وجدت ذلك عليه بخطه ، قلت : هذا نصف بيت . فكتبت إلى جانبه :

تجز التشبيه منه وروى الراوون عنه  
إن مولانا أبجره طافح إن لم يكنه  
فأقد التشبيه فرد فدع التشبيه منه

« وكتب تاج الدين إلى الصفدى من القاهرة في سنة ثلاث وستين وسبعمائة - وقد ذكر ابن حبيب في درة الأسلاك بعض هذه الأبيات ، وهي بتمامها مع رسالة طويلة ، ورد الصفدى عليها مثبتة في ترجمة خليل بن أبيك في الطبقة السابعة :

لا تبكين ماءً تسنه ودع الرسوم المستجنة  
خلّ ادكرك فالدموع كليلة آثار دمنه  
واجر حبيبا نار خدّم به إذا حققت جنه  
وسنان كم نبهته والمجّب يطبق منه جفنه  
أحوى بديع الحسن ظبياً في الحقيقة أو كأنه

في قصيدة طويلة يمدح فيها صلاح الدين .

وتلمح في أثناء القضايا الأدبية التي يعرضها تاج الدين في الطبقات مقدار ما كان يتمتع به من إدراك لمواطن الضعف والقوة في النص الأدبي ، ففي ترجمة محمد بن عبد اللطيف السبكي - الطبقة السابعة - يذكر قصيدته التي يبدوها بقوله :

وافتك عن قرب تبشير الفرخ وأتتك مسرعةً مباشر المنح

ثم يقول : وهذه قافية حلوة ، أول من بلغني نظم فيها عبد الله بن المعتز ، حيث يقول :

خلّ الزمان إذا تقاعس أو جمح واشك الموموم إلى المدامة والقدح  
واحفظ فؤادك إن شربت ثلاثة واحذر عليه أن يطير من الفرخ

في آيات ، أنكر عليه قوله فيها :

وإذا تهادى في العتاب قطعته

بالضم والتقبيل حتى يصطلح

وقال مهبّار :

ما كان سهماً غار بل ظيباً سنح

إن لم يكن قتل الفؤاد فقد جرح

في خده الكافور سبحة عنبر

ما كان أغفلى الغداة عن السبح

في آيات أنكر عليه قوله فيها : « بَطَحَ » (١) .

وقال ابن سناء الملك يمدح الفاضل :

يا قلب ويحك إن ظبيك قد سنح

فتنحَّ جهدك عن مراتع تنحَّ

ثم يستطرد ابن السبكي ، فيقول : ثم إنه اعترض ابن المعتز ومهبّار بما اعترضهما ،

ووقع هو في واحدة ، وهي قوله : « لا تمسح » فإنها لحن ، ولي آيات منها :

إن كان عبد الله أخطأ قوله

بالضم والتقبيل حتى نصطلح

وأنى بشيء ليس يحسن ذكره

مهبّارٌ حيث يقول قافيةً بطح

فلقد لحتَ وقلتَ فيما قلته

لو شئتُ أمسحه بلثمي لا تمسح

في أشباه لهذا كثيرة ، تجدها في الطبقات الكبرى .

وكان ابن السبكي يقرض الشعر في المناسبات التي تعود مثله من العلماء قول الشعر فيها ،

فهو يرثي شيخه الذهبي ، ويذم الزمان ، ويرد على الزمخشري أبياته في الصفات ، ويراسل

أقرانه بالشعر .

كما حبب إلى تاج الدين النظم في العلوم والمعارف ، فنظم قصيدته في الخلافات بين

الأشاعرة والماتريدية ، وخص معجزات الرسول بإحدى قصائده ، كما نظم أرجوزة في الفقه

وهو مسجون ، إبان فتنه عزله عن القضاء في المرة الأخيرة .

(١) البيت في ديوانه ١٨٧/١ وهو :

طِرفٌ تعود أنه لو طارد الر

يح الشمال عليه فارسُه بطح

(٤)

وقد تمثلت ثقافة تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي في هذه المؤلفات التي خانها :

١ - أحاديث رفع اليدين

ذكره بروكلمان .

٢ - الأشباه والنظائر . في الفروع

ذكره ابن حجر ، وابن حبيب ، وابن تفرى بردى ، وابن العماد ، وحاجي خليفة ،  
وبروكلمان .

٣ - أوضح المسالك في المناسك

ذكره بروكلمان .

٤ - تبيين الأحكام في تحليل الحائض

ذكره بروكلمان .

٥ - ترجيح التصحيح الخلاف

ذكره بروكلمان .

٦ - ترشيح التوشيح . في أصول الفقه

ذكره ابن حجر ، وابن العماد ، والكتاني ، وحاجي خليفة ، وبروكلمان .

٧ - توشيح التصحيح

ذكره ابن حجر ، وابن حبيب ، وابن تفرى بردى ، وابن العماد ، وحاجي خليفة ،  
وبروكلمان .

٨ - جزء في الطاعون

ذكره حاجي خليفة .

٩ - جلب حلب

ذكره ابن العماد ، وقال عنه : جواب عن أسئلة سأل عنها الأذرعى وغيره .

١٠ - جمع الجوامع . في أصول الفقه

طبع في مجموع في مصر ١٣١٠ هـ . قال صاحب كشف الظنون : جمعه من زهاء مائة مصنف ، مشتمل على زبدة ما في شرحه على مختصر ابن الحاجب والنهاج ، مع زيادات وبلاغة في الاختصار ، ورتب على مقدمات وسبمة كتب .

١١ - الدلالة عن عموم الرسالة ، جوابا عن أسئلة أهل طرابلس

ذكره بروكلمان .

١٢ - رفع الحاجب عن شرح مختصر ابن الحاجب . في الأصول

ذكره ابن حجر ، وابن حبيب ، وابن تفرى بردى ، وابن العماد ، والكتانى ، وحاجي خليفة ، وبروكلمان .

١٣ - رفع الحوبة في وضع التوبة

ذكره بروكلمان .

١٤ - السيف المشهور في شرح عقيدة أبي منصور [ الماتريدى ]

ذكره حاجي خليفة .

١٥ - شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول ، للبيضاوى

ذكره ابن حجر ، وابن حبيب ، وابن تفرى بردى ، وابن العماد ، والكتانى ، وحاجي خليفة .

١٦ — طبقات الشافعية الصغرى والوسطى والكبرى

١٧ — فتاوى

ذكره بروكلمان .

١٨ — قواعد الدين وعمدة الموحدين

ذكره بروكلمان ، وذكر ابن حجر هذا الكتاب باسم : القواعد المشتملة على الأشباه

والنظائر .

١٩ — مصنف في علم الألفاظ

ذكره حاجي خليفة .

٢٠ — معيد النعم ومبيد النقم

طبع في ليدن ١٩٠٨م بمناية الأستاذ David. W. Myhrman وطبع أيضاً بالقاهرة

طبعت مختلفة .

٢١ — مناقب الشيخ أبي بكر بن قوام

ذكره بروكلمان .

٢٢ — منع الموانع

وهو تعليق على جمع الجوامع . طبع في مجموع - مصر ١٣٢٢ هـ .

(٥)

لم يكن ابن السبكي أول من صنف في طبقات الشافعية ، ولا آخر من أدلى دلوه ،  
فقد سبقته جهود وتلته تصانيف . وقد ذكر في مقدمته من صنفوا في الطبقات . قال :  
« فأول من بلغنى صنف فى ذلك الإمام أبو حفص عمر بن على المطوّعى ، المتوفى نحو  
٤٤٠ هـ صنف للإمام أبى الطيب سهل الصّعلوكى كتابا سماه « المذهب فى ذكر شيوخ  
المذهب » .

ثم ألف القاضى أبو الطيب الطبرى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ مختصرا ، ذكر فيه مولد الشافعى  
رضى الله عنه ، وعدّ فى آخره جماعة من الأصحاب .

ثم ألف الإمام أبو عاصم العبّادى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ كتابه .

ثم ألف شيخ الإسلام أبو إسحاق الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦ هـ وهو غير مقتصر  
على الشافعيين ، بل فيه الشافعية ، والمالكية ، والحنفية ، والحنابلة ، والظاهرية .

ثم ألف الحافظ أبو محمد عبد الله بن يوسف الجرجانى المتوفى سنة ٤٨٩ هـ كتابه  
الطبقات .

ثم ألف القاضى أبو محمد عبد الوهاب بن محمد القاضى الشيرازى المتوفى سنة ٥٠٠ هـ  
كتاب « تاريخ الفقهاء » .

ثم ألف المحدث أبو الحسن بن أبى القاسم البيهقى المعروف بفندُق المتوفى سنة ٥٦٥ هـ ،  
كتابا سماه « وسائل الألعى فى فضائل الشافعى » .

ثم جمع الشيخ الإمام أبو النجيب الشهروردى المتوفى سنة ٥٦٣ هـ مجموعا .

ثم جاء الشيخ ابن الصّلاح المتوفى سنة ٦٤٣ هـ فألف كتابه ، ولكن النية عاجلته  
والكتاب مسوّدة ، فأخذَه الإمام أبو زكريا النووى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ واختصره وزاد  
أسامى قليلة جدا ، ومات أيضا وكتابه مسوّدة فيبضه الحافظ أبو الحجاج العزّى ، المتوفى  
سنة ٧٤٢ هـ .

ثم ألف الشيخ عماد الدين بن باطيش المتوفى سنة ٦٥٥ هـ كتابه « .  
هذه جهود العلماء قبل ابن السبكي . كما ذكرها .  
ومن معاصريه ثم من بعده صنف في الطبقات :

الشيخ جمال الدين عبد الرحيم بن حسن الإسنوي المتوفى سنة ٧٧٢ هـ فرغ من تأليفه  
سنة ٧٦٩ هـ . ورتب على حروف الأشتهار . ذكر في كل حرف فصلين ، أوله في رجال  
الشرح الكبير والروضة ، واثماني في الزائد عليهما . ونقل من طبقات التنفليس لموسوى  
عمر بن مُبندار المتوفى سنة ٦٧٢ هـ وهى مجلد ضخم ألفه قبل الإسنوي<sup>(١)</sup> .  
ثم صنف الحافظ ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ<sup>(٢)</sup> .

ثم صنف محمد بن الحسن بن عبد الله الحسيني الواسطى المتوفى سنة ٧٧٦ هـ كتابه  
« المطالب العلية في مناقب الشافعية »<sup>(٣)</sup> .

ومن رجال القرن الثامن أيضا صنف شمس الدين محمد بن عبد الرحمن العثماني قاضي  
صفد ، المتوفى سنة ٧٨٠ هـ<sup>(٤)</sup> .

ثم ألف القاضي شرف الدين أبو عبد الله محمد بن قطب الدين عبد الرحمن ، المتوفى في  
حدود سنة ٨٠٠ هـ كتابه « السكافي في معرفة علماء مذهب الشافعي »<sup>(٥)</sup> .

وصنف سراج الدين عمر بن علي المعروف بابن الملقن المتوفى سنة ٨٠٤ هـ كتابا سماه  
« العقد المذهب في طبقات حملة المذهب » من زمن الشافعي ، بعبارات محررة إلى سنة  
٨٧٠ هـ . رتب على ستة وثلاثين طبقة<sup>(٦)</sup> .

(١) كشف الظنون ١١٠١ ، الدرر الكامنة ٢ / ٣٥٤ .

(٢) كشف الظنون ١١٠١ ، الدرر الكامنة ١ / ٣٧٣ .

(٣) فهرس مخطوطات جامعة الدول العربية . قسم التاريخ .

(٤) كشف الظنون ١١٠١ .

(٥) فهرس التاريخ بدار الكتب المصرية .

(٦) كشف الظنون ١١٠١ ، الضوء اللامع ٦ / ١٠١ ، فهرس دار الكتب المصرية .

ثم ألف الفيروزابادى صاحب القاموس ، المتوفى سنة ٨١٧ هـ « المرقاة الأرفعية »<sup>(١)</sup> .  
وجمع الشيخ شهاب الدين بن أرسلان بن أحمد بن حسين الشافعى الرملى ، المتوفى  
سنة ٨٤٤ هـ<sup>(٢)</sup> .

ثم صنف القاضى تقى الدين أبو بكر بن أحمد بن شُهبة الدمشقى الأسدى ، المتوفى سنة  
٨٥١ هـ مصنفاً رتبته على تسعة وعشرين طبقة . وعليه ذيل للشريف عمر الدين حمزة بن أحمد  
الدمشق الحسينى الشافعى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ<sup>(٣)</sup> .

ثم ألف رضى الدين محمد بن أحمد بن عبد الله الغزّى العامرى الشافعى ، المتوفى سنة  
٨٦٤ هـ كتابه « بهجة الناظرين إلى تراجم المتأخرين ، من الشافعية البارعين »<sup>(٤)</sup> .

وفى أخريات القرن التاسع ألف القاضى قطب الدين محمد بن محمد الخيضرى المتوفى  
سنة ٨٩٤ هـ كتاباً سماه « اللمع الألمعية لأعيان الشافعية »<sup>(٥)</sup> .

وقد جمع كلال الدين أبو المعالى محمد بن أحمد الشافعى المقدسى المتوفى سنة ٩٠٦ هـ  
تراجم لبعض فقهاء الشافعية فى ست ورقات<sup>(٦)</sup> .

ثم صنف أبو بكر بن هداية الله الحسينى الملقب بالمصنف ، المتوفى سنة ١٠١٤ هـ كتاباً  
فى طبقات الشافعية طبع ضمن مجموعة ببغداد ١٣٥٦ هـ

(١) كشف الظنون ١١٠١ .

(٢) كشف الظنون ١١٠١ ، الضوء اللامع ١ / ٢٨٢ .

(٣) كشف الظنون ١١٠١ ، الضوء اللامع ١١ / ٢١ ، ٣ / ١٦٣ ، فهرس دار الكتب المصرية

(٤) فهرس جامعة الدول العربية .

(٥) كشف الظنون ١١٠١ ، الضوء اللامع ٩ / ١١٧ - ١٢٤ . قال السخاوى فى ترجمته

للقاضى قطب الدين : وقد استعار من شيخنا [ابن حجر] نسخته بالطبقات الوسطى لابن السبكي ، فجرد ما  
بها من الحواشى المشتملة على تراجم مستقلة وزيادات فى أثناء التراجم مما جردته أيضاً فى مجلد ، ثم ضم ذلك  
لتصنيف له على الحروف ، لحص فيه طبقات ابن السبكي مع زوائد حصلها بالمطالعة .

(٦) فهرس جامعة الدول العربية .

وآخر من نعرف ألف في طبقات الشافعية شيخ الإسلام عبد الله الشرقاوى ، المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ . جمع في كتابه تراجم متأخرى الشافعية من سنة ٩٠٠ إلى ١١٢١ هـ<sup>(١)</sup> .

## (٦)

هذه هي جهود العلماء في الترجمة لأعلام الشافعية ، ولكن ابن السبكي حين ألف كتابه هذا جاء إلينا بعمل فريد ، وقدم إلى الناس إحدى الموسوعات العربية ، ينهل منها كل من يطلب المعرفة ، وينشد فيها كل متخصص حاجته .

ولم يكن تأليفه الطبقات فكرة عابرة ، أرقته حيناً فسجلها في كتاب ، وإنما كان يعد لذلك - كما أخبرنا في المقدمة<sup>(٢)</sup> منذ صباه ، كلف بأخبار العلماء فجعل يجمعها ، وكلما وقع نظره على شاردة قيدها ، أو حادثة أمعن النظر فيها ، أو على مناظرة شهدها وحكم فيها ، حتى إذا استقام عوده ، ونضجت ثقافته ، وكثرت تجاربه ، وملك زمام القول أفرغ هذا كله في كتابه الطبقات . ماراً بك على رياض الفكر ، ومواكب الشعر ، ومجالس العلماء « فبينما الفقيه منها في عويص الفروع المشتبكة ، إذا به في رياض من آداب تحرك فاقد الحركة . وبينما الأديب في نشر حلال مطرزة ، إذا به في مواعظ وحكم موجزة . وبينما المرید في سلوك الطريق ، إذا به في أحاديث مُسنّدة يعلم أنها باب التوفيق . وبينما المؤرخ في حكايات انقضى زمانها ، إذا به قد عبر على تراجم يعز على المنقب وجدانها »<sup>(٣)</sup> .

والطبقات الكبرى تشتمل على مقدمة ، وسبع طبقات ، يترجم في كل طبقة منها لأعلام مائة سنة . أما المقدمة فقد استوفى فيها ابن السبكي مباحث عدة ، وناقش مسائل في الحديث ، وتقد الرجال ، والنحو ، بل إنه ليعرض لقضايا علم الكلام ، فيقدمها

(١) فهرس دار الكتب المصرية .

(٢) صفحة ٢٠٦ من نشرتنا هذه .

(٣) صفحة ٢٠٩ .

وبين الآراء ، في استقصاء شامل وسرد منهجي ، ثم ينتصر لرأيه ورأى الأشاعرة آخر الأمر .

ولم ينس تاج الدين أن يناقش آراء العلماء في رواية الشعر ، وإنشاده ، وسماعه ، وأن يذكر ما بلغه مسندا من الشعر الذي أنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما روى عن صحابته ، وعلماء الأمة وأخبارها ، وما روى عن الشافعي نفسه ، من إنشاء الشعر ، وإنشاده وسماعه .

وقد حرص أبو نصر على أن يذكر في المقدمة طبقات الرواة ، الذين عنهم أخذ ، وبطريقهم أسند .

كما هزته الأحداث الدامية التي شهدها العالم الإسلامي ، إبان الزحف المغولي الناشم ، فذكر حوادثها مختصرة ، على النحو الذي يحتاج إليه الفقيه ، وينشده غير المتخصص . وقد نهج ابن السبكي في مقدمته هذه نهجا فريدا ، حيث لم يستطرد في افتتاحيته فيفتح بسم الله ، ويثنى بحمد الله ، والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذكر الشهادتين ، وإنما كان يتمهل في ذكر ذلك كله . فقد بدأ كتابه بسم الله وحده ، تيمنا وتبركا ، ثم روى بسنده كل ما يتصل بافتتاح الأعمال من أحاديث ، وناقش كل ما عرضت له هذه النصوص من قضايا ، حتى إذا اطمأن إلى أن القول قد تم وكمل ، قال : « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي رفع طبقات العلماء على هام الملوك وتاجها .... »<sup>(١)</sup> . ثم روى بعد ذلك بسنده الأحاديث التي تتعلق بالشهادتين ، واستوفى مباحثهما ، حتى تسنى له فيما بعد أن يقول « فنشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة آمنة من اختلال الأذهان واختلاجها... ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، إمام التقوى وضياء سراجها ... »<sup>(٢)</sup> .

---

(١) صفحة ٢٤ .

(٢) صفحة ١٥٢ .

ثم يروى بعد ذلك بسنده الأحاديث التي تحض على الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم  
ويبين ثواب فعلها ، وإثم تركها ، ثم يقول : « فصلى الله على سيدنا محمد وآله ، وأصحابه ،  
وسائر الأنبياء والمرسلين ، القانتين بمداواة القلوب ... »<sup>(١)</sup>

ثم يروى بعد ذلك بسنده أحاديث فضل قريش وعلمائها ، ويخوض في بحوث شتى حول  
الإمامة السياسية ، وإمامة العلماء ، ويتحدث عن مكانة الشافعي ونسبه ، ثم عن الأئمة الذين  
يبتسمهم الله على رأس كل مائة سنة ، فيجددون لهذه الأمة أمر دينها ، ثم يقول : « ورضى  
الله عن إمامنا المطليبي الشافعي ، شافي العي عن الكلمات باعتمادل مزاجها ... »<sup>(٢)</sup>

ولا يستطيع ابن السبكي أن يقول : « أما بعد » ويشرح سبب تأليفه للكتاب ،  
ونهجه في وضعه إلا إذا ذكر بسنده من الأحاديث والآثار ما يتعلق بـ « أما بعد »  
وأول من قالها .

أما الطبقات فقد كسرهما تاج الدين على سبعة أجزاء ، وعقد لأهل كل مائة سنة طبقة ،  
وهو يرى أن كتابه هذا : « كتاب حديث ، وفقه ، وتاريخ ، وأدب ، ومجموع فوائد  
تنسل إليه الرغبات من كل حدب ، نذكر فيه ترجمة الرجل مستوفاة ، على طريقة المحدثين  
والأدبا ، ونورد نكتنا تسحر عقول الألبا »<sup>(٣)</sup> .

وقد جرى ابن السبكي في ترجمته رجال الطبقات على نهج قويم ، يدل على بصر بتاريخ  
الترجم ، وإحاطة بالفنون التي أجادها ، ووعي لدقائق الأمور التي أثارها ، وبصر بالجديد  
الذي أضافه إلى العلم ، والمسائل التي تفرّد بها في فنه ، يقول تاج الدين بعد أن ذكر  
سبيله هذا : « وكل هذا وراء مقصودنا الأعظم فييه ، ومرادنا الأهم الذي لا يقوم به  
سهر الليل ولا يوفيه ، إذ أعظم مقاصدنا أننا عند الفراغ من ترجمة كل رجل ، أو في أثناءها

(١) صفحة ١٨٩ .

(٢) صفحة ٢٠٣ .

(٣) صفحة ٢٠٧ .

نظر ، فإن كان من المشهورين الذين طارت تصانيفهم فمئات الأقطار ، ودارت الدنيا ولم تكثف بمصر من الأمصار ، نظرنا فإن وجدنا له تصنيفا غريبا ، استخرجنا منه فوائد ، أو مسائل غريبة ، أو وجوها في المذهب واهية ، وكتبناها . وإلا فنذكر وجها غريبا ذكر عنه ، أو مقالة غريبة ذهب إليها ، وشدد بها عن الأصحاب . وإن كان من المقلّين أعملنا جهدنا في حكاية شيء من ذلك عنه . وربما غلب الفقه على إنسان ولم نر عنه في الفقه مستغربا ، فنقلنا عنه فائدة غير فقهية : إما حديثة ، أو غيرها . وربما غلب عليه الحديث ، أو غيره من العلوم سوى الفقه ، فأعملنا جهدنا في نقل شيء من الفقه ، أو ما يناسبه عنه . فإن لم نجد له شيئا لم نحل ترجمته من حكاية ، أو شعر ، أو فائدة تستغرب « (١) .

وقد أدرك تاج الدين صعوبة هذا المنهج ، ومشتقته على القارئ ؛ ولهذا فهو يعتذر عن احتفاله بالأسانيد ، وحرصه على نقل المناظرات والمجادلات كاملة ، والاستطراد إن احتاج الأمر إلى الاستطراد ، يعتذر عن ذلك كله بأنه جعل كتابه كافيا لمن يقرأه ، مغنيا له عن النظر في كثير من المصادر .

ولم يستطع ابن السبكي أن يفي بوعده هذا في كل ترجمة ، فهو أحيانا يذكر اسم المترجم ، ثم يسكت عنه ، وأحيانا أخرى يذكر ترجمته ناقصة ، بل إن في الكتاب مباحث لم يكملها المؤلف ، ربما كان يرجى ذلك كله إلى فسحة من الوقت ، ولكنه لم ينسأله في الأجل ، حيث مات في الرابعة والأربعين .

وقد اعتمد تاج الدين في ترتيبه كل طبقة على حروف المعجم ، وبدأ بذكر الأحمدين ثم الحمدين ، ثمنا وتبركا ، وكذلك فعل في الطبقات الوسطى والصغرى ، حيث رتب المترجمين على حروف المعجم مع البدء أيضا بالأحمدين والمحمدين ، ولكنه أغفل الترتيب الزمني للطبقات ، واكتفى بالترتيب على حروف المعجم ، ما عدا من لقي الشافعي منهم ، فقد أفرد هؤلاء بطبقة ، وذكرهم في صدر الكتاب ، مرتبين على حروف المعجم .

(١) صفحة ٢٠٨ .

وهنا تثور مشكلة السبق في تأليف الطبقات الثلاث ، بأبيها بدأ تاج الدين ؟  
 يرى الأستاذ محمد الصادق حسين في كتابه « البيت السبكي » : أن تاج الدين قد تدرج  
 في وضع طبقاته ، من المختصر إلى المطول ، لا من المطول إلى المختصر . وينقض على واضعي  
 فهارس دار الكتب قولهم : إن المؤلف قد اختصر « الطبقات الوسطى » من « الكبرى »  
 ثم اختصر « الطبقات الصغرى » من « الوسطى » ويعلق على هذا بقوله : « وهذا وهم ،  
 فالثابت أن الطبقات الوسطى أُلِّفت قبل الكبرى ؛ لأننا نجد في جزء من الوسطى مخطوط :  
 قال المؤلف رحمه الله عليه : فرغت منه في ليلة الثالث والعشرين من ذى القعدة ، سنة أربع  
 وخمسين وسبعمائة ، بدمشق المحروسة ، عمرها الله تعالى . اهـ ، والطبقات الكبرى إنما فرغ  
 من تأليفها سنة ٧٦٦ هـ ، كما جاء في ذيل كثير من الأجزاء ، وكما ترى في إحدى القطع  
 اثلاث ( في صدر هذا البحث ) التي يقال إنها بخط تاج الدين . وثابت أن الطبقات  
 الوسطى أُلِّفت وأبو المؤلف من الأحياء ، ففي الطبقات الكبرى أن علي بن عبد الكافي  
 كتب بخطه على ترجمته في الطبقات الوسطى عبارة اختتمها بقوله : كتبه على السبكي في  
 يوم السبت ، مسهل جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة . اهـ ، لكن الطبقات  
 الكبرى أُلِّفت بعد وفاة والد المؤلف ؛ ففي غير موضع منها يذكر المؤلف والده ويترحم  
 عليه ، فلا نزاع إذن في أن الوسطى أُلِّفت قبل الكبرى . ولم يتيسر لي الاطلاع على  
 الصغرى لمعرفة تاريخ تأليفها إن وجد ما يدل عليه ، لكنني أرجح أنها أُلِّفت قبل  
 الوسطى » .

وقد تيسر لنا الاطلاع على نسخة من الطبقات الصغرى محفوظة بدار الكتب  
 المصرية ، جاء بأولها : « هذا مختصر لطيف ، في تاريخ الفقهاء الشافعيين ، أصحاب الإمام  
 أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ، رضي الله عنه ، جمعنا فيه ما أوردناه في كتابنا  
 الكبير من الأسماء ، واقتصرنا فيه على نُبذ يسيرة ، أعان الله على إكمالها ، بمنه وكرمه  
 وأفضاله » ، وفي آخرها : « هذا آخر المختصر الأصغر ، من كتابنا طبقات الشافعيين ،

وهو مع التناهي في الاختصار والالاتصار ، جليل الفائدة ، جميل العائدة ، ولا يقدر على جمعه إلا من جمع من كتابنا الكبير والوسيط ، وأضافهما إلى كتبه » ، وفي آخرها أيضا : « قال المؤلف رحمه الله : كتبه مؤلفه عبد الوهاب بن علي السبكي ، كان الله له ، واتفق الفراغ منه صبيحة يوم الأحد ، سابع شعبان المكرم ، سنة ٧٥٦هـ بدمشق » .

وقد رجعنا إلى نسخة من الطبقات الوسطى محفوظة بدار الكتب المصرية ، تبدأ بحرف الطاء ، وسجلنا منها هذه الملاحظات :

ا - في آخر ترجمة القفال الصغير - الطبقة الرابعة - يقول : « وقد أسندنا حديثه في الطبقات الكبرى » .

ب - في آخر ترجمة عبد الله بن مروان - الطبقة السابعة - يقول : « أسندنا حديثه في الطبقات الكبرى » .

ج - في أثناء ترجمة منصور بن محمد بن عبد الجبار - الطبقة الرابعة - يقول : « أسندنا حديثه في الطبقات الكبرى » وكذلك قال في ترجمة يعيش بن صدقة - الطبقة الخامسة - .

د - في أثناء ترجمة القاسم بن محمد الشاشي ، صاحب التقريب - الطبقة الثالثة - يقول : « وقد وقفت على الأول والثاني ( من كتاب التقريب ) وهما إلى أثناء الحج ، ولعلنا نورد منهما شيئاً من المستغربات في الطبقات الكبرى » .

ه - في آخر الطبقات الوسطى ، في باب الكنى والنسب ، يقول : « وبيت السمعاني بيت كبير ... ومن لم يسبق ذكره منهم محمد بن الحافظ أبي سعيد عبد الكريم ، وإنما أغفلنا ذكره نسيانا ، وكان يكنى أبا زيد ، وكان واعظا ... مولده سنة أربع وخمسين ، وتوفي بعد سنة سبع عشرة وسبعمائة » .

و - في آخرها يقول : « وإلى هنا انتهى هذا المختصر . قال المؤلف رحمه الله عليه : فرغت منه في ليلة الثالث والعشرين من ذي القعدة ، سنة أربع وخمسين وسبعمائة ، بدمشق المحروسة » .

كما تيسر لنا الاطلاع على نسخة كاملة من الطبقات الوسطى ، محفوظة بجامعة الدول العربية ، يذكر المؤلف في مقدمتها أنه ألف كتابا في طبقات الفقهاء الشافعية مبسوطا حافلا ، حاويا لما يراد منه .

ويذكر أيضا - بعد انتهائه من إسناد أحاديث الافتتاح والحمدلة والشهادتين - يقول : « وفي الباب أحاديث أخر كثيرة ، سقناها مع إشباع الكلام عليها في الطبقات الكبرى » .

ويذكر أيضا - بعد إسناده أحاديث أما بعد - قوله : « وقد جمعنا في أما بعد أشياء جمّة في الطبقات الكبرى » .

ويبدو للوهلة الأولى أن هذه النقول تخلق من الترتيب الزمني لتأليف الطبقات مشكاة تاريخية ، ولكن ابن السبكي يحسم ذلك ، بقوله في مقدمة الطبقات الوسطى - المحفوظة بجامعة الدول العربية - : « فأعلمنا المهمة في كتابنا ، حتى جاء على الوجه الذي شرحناه ، إلا أنني لمّا التزمت فيه من ذكر الغرائب ، لم يمكني إخراجه من يدي في هذا الزمان ؛ لأنه كل يوم يتجدد فيه استفادة ما لم يكن يعرفه ، فيحتاج إلى كتابته ، وأيضا فبقيت تراجم كثيرة نأمل تحصيلها وإيداعها فيه ، ومعلوم أن في إخراجه من اليد إلى من يثب عليه ، وينسخه أحد أمرين : إما الكف عن كتابة ما تحدث بعد ذلك معرفته ، وإما إتلاف النسخ على أصحابها بالزيادة والنقصان وكثرة التغير ، فعمدت إلى ذلك الكتاب ، واختصرته اختصارا ، يأتي بالتراجم على وجهها لا يدع منها اسما ، فإن أنت رأيت اسما في ذلك الكتاب غير مذكور هنا ، فاعلم أنه مما زيد فيه ، بعد خروج هذا المختصر من أيدينا » .

ويتضح من هذا أن ابن السبكي قد بدأ بإخراج طبقات الشافعيين في كتابه « الطبقات الوسطى » وكان في أثناء ذلك يعمل لإصدار موسوعته في هذا الفن ، التي عرفت باسم « الطبقات الكبرى » .

وإذا فقد آنچه تاج الدين إلى الفراغ من كتابه « الطبقات الوسطى » ليخرجه إلى الناس ، تاركاً المسائل المعلقة لكتابه الكبير « الطبقات الكبرى » ولهذا لم يتيسر له أن يصل بالطبقات الكبرى إلى الكمال فيما كان يؤمله ، فترك بعض الثغرات في كتابه : مسائل لم يكتمل القول فيها ، وترجمات لم يهتد إلى كل أخبارها ، وأسماء لم يعثر على أخبار تميزها ، وتحدد معالمها .

وربما كان ابن السبكي يرجع إلى طبقاته الوسطى بالصقل والتهديب ، فلو رجعنا إلى الفقرة « هـ » من ملاحظتنا على نسخة دار الكتب من « الطبقات الوسطى » ورجعنا إلى الطبقة السادسة من « الطبقات الكبرى » فلن نجد لمحمد السمعاني ذكراً فيها .

كذلك نلاحظ أن بعض التراجم الناقصة في الكبرى كاملة في الوسطى ، ففي ترجمة طلحة بن الحسين - الطبقة الخامسة - نجده لا يذكر إلا اسمه ، أما في الطبقات الوسطى فإنه يقول : « طلحة بن الحسين أبو محمد الإسفراييني [ المهرجاني ، مات في دهليز الحمام فجأة ، وذلك في خامس ذى الحجة ، سنة ست وأربعين وخمسمائة ] » .

ومن هنا كانت الطبقات الوسطى محل إجلال العلماء ، وقد اعتمدها ابن حجر ، واستعارها منه القاضي قطب الدين محمد بن محمد الخيصرى المتوفى سنة ٨٩٤هـ وأفاد منها في تأليف مصنفه عن الشافعية<sup>(١)</sup> .

ولعله اختصر طبقاته الصغرى ، من الطبقات الوسطى ، ومن الطبقات الكبرى ، أثناء عمله فيها وقبل الفراغ منها .

\*\*\*

---

(١) الضوء اللامع / ٩ / ١١٧ - ١٢٤

(٧)

وقد اعتمدنا في نشر هذا الكتاب وتحقيقه على :

١ - نسخة محفوظة بمعهد المخطوطات - جامعة الدول العربية - مصورة عن مكتبة البديري بالقدس ، وهي مكتوبة بخط نسخ جيد ، غير مرتبة ، وأوراقها مضطربة ، وبها خروم ، وقد تملكها بعض العلماء ، منهم الحافظ ابن حجر وغيره ، وهي في ٥٠٠ ورقة ومقاسها ١٩ × ٢٨ سم .

وقد تفحصنا أوراقها ، وأعدنا ترتيبها ، فسلم لنا قدر صالح منها ، يشتمل على المقدمة ، والطبقات : الأولى ، والثانية ، وبهما خروم يسيرة ، والثالثة كاملة ، وبعض لوحات من الرابعة ، والسادسة ، وبها خروم ، والسابعة كاملة .

وكان لتمامك بعض العلماء لها فضل كبير ، في دقة المقابلة ، حيث عورضت بنسخة المصنف والضبط بالقلم في بعض الأماكن . وخلال عملنا في المقدمة اتضح لنا ملاحظات قيمة تجدها في صفحات : ٢٠ السطر ٢٠ ، ٦٨ السطر ١٥ ، ٧٨ السطر ١٨ ، ٨٢ السطر ١٨ ، ١٤٧ السطر ١٩ ، ١٨٧ السطر ٢٠ ، ١٩٧ السطر ٢٢ ، ٢٥٣ السطر ١٩ . وقد رمزنا لهذه النسخة بالرمز : « ج » .

٢ - نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية ، تقع في ٤٥٨ ورقة ، مقاسها ٣٠ × ٢٠ سم بأولها فهرس بأسماء المترجمين والحوادث المهمة ، وبآخرها أدعية مأثورة للمصنف ، وقد تمت كتابتها في يوم الأربعاء السادس من شهر رجب سنة ١١٢٩ هـ ، وهي نسخة كاملة ، نسخها غير دقيق ، وبها سقط في بعض المواضع ، وقد لاحظنا أن بعض هذا السقط مثبت في الأصل المطبوع وفي صلب : ج ، والبعض الآخر ، في المطبوع وعلى هامش : ج . وهذه النسخة توافق : ج غالباً ، عند اختلاف النسخ . وقد رمزنا لها بالرمز : « د » .

وفي بداية النسختين ج ، د نجد هذا الافتتاح :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، رب يسر وأعن ، قال سيدنا ، العبد الفقير إلى الله تعالى ، قاضى القضاة ، حاكم الحكام ، شيخ الإسلام ، تاج الدين ، مفتى فرق المسلمين ، حجة الحفاظ والفسرين ، سيف النظار والمتكلمين ، ناصر السنة ، مؤيد الملة ، أحد المجتهدين ، خطيب الخطباء المسلمين ، قدوة الفصحاء والبلغاء الفوهين ، أبو نصر عبد الوهاب بن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، قاضى القضاة ، حاكم الحكام ، شيخ الإسلام ، تقى الدين ، أوحد المجتهدين أبي الحسن على بن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، قاضى القضاة ، حاكم الحكام ، زين الدين أبي محمد عبد الكافي بن تمام الأنصارى الخزرجى السبكي الشافعى ، أمتع الله الإسلام وأهله بطول حياته ، وأعاد عليهم من عوارفه وبركاته ، آمين . »

وقد طبع هذا الكتاب طبعة وحيدة سنة ١٣٢٤هـ بالمطبعة الحسينية بمصر ، طبعة غاية في النكر والرداءة ، شاع فيها التصحيف والتحريف ولم يذكر ناشرها الأصل الذى أخذت عنه ؛ ولذلك فقد أهملنا ذكر كثير من الفروق بينها وبين النسخ الأخرى ، ولم نذكر من الفروق إلا ما كان لذكوره وجه .

وفي أصل الكتاب بياض في بعض المواضع ، وتكرار لبعض التراجم ، وبعض الفقرات ، كذلك نجد خلطا في ذكر التراجم ، فقد ترجم ابن السبكي للفضل بن محمد ابن الحسين في الطبقة الثالثة ، ثم عاد ترجمه في الطبقة الرابعة ، ولعله تردد في ذكره في إحدى الطبقتين ، فوضعه فيهما لعدم وثوقه . كذلك نجد تكرارا لخاتمة الطبقة الأولى ؛ حيث ذكر هذه الخاتمة قبل ذكره الفوائد والمسائل عن يونس بن عبد الأعلى ، ثم عاد نقتم الطبقة بها .

وكل هذه الهنات مشتركة بين الأصول ؛ المطبوع منها والمخطوط ، مما يدل على أن المؤلف

لقد ربه قبل أن يعود إلى مصنفه فيسد الجلال ، ويكمل النقص ، ونحن الآن بصدد تصوير نسخة كاملة من « الطبقات الوسطى » محفوظة بجامعة الدول العربية ، للاستفادة بها . في تكميل هذا النقص ، ورتق هذا الخرق .

وفي دار الكتب المصرية قطعة من الطبقات الكبرى يقال إنها بخط المصنف ، وتشتمل على بعض التراجم .

وقد أخذنا نفوسنا عند العمل في هذا الكتاب ، بمضاعفة الجهد ، وبذل كل ما تحتمله الطاقة في ضبط نصوصه وأعلامه ، وتوثيق نقوله وشواهد ، وتخرىج أحاديثه وأبياته . مع الحرص على سلامة النص ، وسهولة الرجوع إليه ، ويسر الاستفادة منه ؛ ولذلك فقد اتوينا أن نالحق بالكتاب فهرس كاشفة ، تدل على أعلامه وأماكنه ، وأبياته ، ورجزه ، وأمثاله ، وآيات القرآن ، وأحاديث الرسول ، والكتب التي أورد ذكرها المؤلف ، وسنضيف إلى كل ذلك - إن شاء الله - كشفا بمسائل العلوم والفنون التي احتفل بها المصنف ، وملأ بها كتابه ، وقد دفعنا إلى هذا الجهد المضاعف إيماننا بالمكانة العظيمة التي يحتلها هذا الكتاب في المكتبة العربية ، وحرصنا على أن تقدمه لجمهور المثقفين ، ناضح الثمار ، داني القطف .

ولا يسعنا في هذا المكان إلا أن نتقدم بالشكر إلى العلماء الأجلاء ، الذين أفدنا من توجيهاتهم .

وإلى الأستاذ فؤاد سيد ، على ما قدمه لنا من نصح كريم ، وعون مشكور .  
وإلى الأستاذ محمد رشاد عبد المطلب ، على اهتمامه بإخراج هذا الكتاب ، وحرصه على أن يقدم لنا ما يعين على نشره وإتمامه .

\*\*\*

ونسأل الله الكريم: أن يسدد خطانا في سبيل هذا العمل العظيم، وأن يعين على إتمامه  
كما أعان على البدء فيه، وندعوه أن يربط على قلوبنا فنمضي فيه مسددين موفقين،  
إنه نعم المولى ونعم النصير . آمين

غرة رمضان المبارك ١٣٨٣ هـ  
القااهرة في: ١٦ يناير سنة ١٩٦٤ م

عبد الفتاح محمد الحلوة ، محمود محمد الطناحي

## مصادر الترجمة :

- البداية والنهاية لابن كثير (١٤/٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٨، ٣٠٣، ٣٠٦، ٣١٠، ٣١٦، ٣١٨)
- البيت السبكي للأستاذ محمد الصادق حسين .
- تاج العروس للزيدي (س ب ك) .
- تاريخ الأدب العربي . لبروكلمان (٤ : ١٠٨ ، ملحق ٢ : ١٠٥) :
- حسن المحاضرة للسيوطي (١ : ١٤٨) طبع مصر .
- الدارس في تاريخ المدارس للنعماني (١ : ٣٧ ، ٣٨ ، ٢٢٣ ، ٢٤٠ ، ٤٥٨ ، ٤٦٣) .
- الدور الكامنة لابن حجر (٢ : ٤٢٥ - ٤٢٨)
- درة الأسلاك في دولة الأملاك لابن حبيب (٣ لوحة ٢٤) مصور بدار الكتب .
- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٦ : ٢٢١ ، ٢٢٢) .
- فهرس جامعة الدول العربية (التاريخ) .
- فهرس دار الكتب المصرية (التاريخ) .
- فهرس القهارس للكتفاني (٢ : ٣٧٢ ، ٣٧٣) .
- كشف الظنون (١٠٠ ، ١٥٠ ، ٣٩٩ ، ٥٠٧ ، ٥٩٥ ، ٨٧٦ ، ١١٠١ ، ١١٥٧ ، ١٧٤٤ ، ١٨٥٥ ، ١٨٧٩) .
- المهمل الصافي لابن تغري بردى (١ : ٣٦٠) مخطوط بدار الكتب .
- المواعظ والاعتبار المقرزي (٢ : ٢٧٩) .
- النجوم الزاهرة لابن تغري بردى (١١ : ١٠٨ ، ١٠٩) .